

المكونات والأسس التربوية لبعض حركات التصحيح الإسلامية

في أفريقيا جنوب الصحراء

د.مهدي ساتي صالح*

مقدمة:

شهد تاريخ الإسلام فيما يعرف بإفريقيا جنوب الصحراء عددا من الحركات والثورات الإصلاحية التي تبنت في مسيرتها أنماطا من الأسس التربوية الإسلامية بنت عليها مناهجها في التغيير والدعوة للنهوض بمجتمعاتها وفق مطلوبات العقيدة والدين وضرورات العمل الدعوى في مواجهة عدد من الظروف والمستجدات الحادثة ، ونحاول في هذه الورقة لقاء الضوء على بعض أهم هذه الأسس من خلال تصويب النظر في حيثيات عدد من الحركات التصحيحية الكبرى التي انتظمت مناطق الساحل والصحراء ثم انداحت جنوبا في اتجاه العمق الإفريقي، ومن أهمها ثورة المرابطين بزعامة المجاهد عبدالله بن ياسين الجزولي في القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي باعتبارها اول حركة تصحيحية تنطلق من الصحراء فتنشر جنوبا متخطية حزام السافانا ، وتمتد شمالا إلى أوروبا (الأندلس) لتؤسس دولة إسلامية تربط بين الشمال والجنوب ، ومن هذه الحركات التجديدية جنوب الصحراء التي يتناولتها هذه الورقة ثورة الفوديين بقيادة الشيخ المجاهد عثمان دان فوديو في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي والتي أثمرت خلافة إسلامية امتدت لقرن من الزمان من عاصمتها (سكتو) ثم الثورة المهدية بزعامة الامام محمد أحمد المهدي في بلاد السودان الشرقي ، كان القاسم المشترك لكل هذه الحركات التاريخية المختارة .

1- انطلاقها جميعا من أسس تربوية متشابه استقت مكوناتها المرجعية من الكتاب والسنة خاصة فيما يتعلق بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتباره مطلوبا أساسيا من مطلوبات الدين في التغيير والإصلاح بغية استيفاء شروط الخيرية التي في قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (1) وامتثالا لهديه صلى الله عليه وسلم ، حيث يقول (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فقلبه وذلك أضعف الإيمان) رواه مسلم (2). والتشابه في المعطيات التاريخية لا يعني (الافتراض) بالضرورة كما يثبت ترمينجهام Trimingham بل يدل على وحدة الأصل والمكونات (3) .

* رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة إفريقيا العالمية .

2- انتقالها بالعمل الدعوي من مرحلة الوعظ والإرشاد والتعليم إلى مرحلة السيادة السلطانية وتكوين الدول والإمارات ، وهو أمر لا يستثنى إلا بعون الله سبحانه وتعالى وفق معايير خاصة تتناول بعضها العلامة ابن خلدون في مقدمته وعدد من علماء الاجتماع المحدثين .

3- ارتباطها بمؤسسات تعليمية إسلامية خاصة على رأسها المسجد ثم المدرسة القرآنية فالزوايا والمحاضر والربط .

المؤسسات التعليمية التربوية ودورها في الإعداد لتيارات الإصلاح والتغيير : .

1- المساجد :

في هذا الجزء من إفريقيا كما في غيرها قامت مؤسسات التعليم الإسلامي والعربي بدور أساسي في التأصيل للأسس التربوية التي سارت على هديها حركات التصحيح ، وتعد المساجد رائدة في هذا المجال على امتداد تاريخ الإسلام والمسلمين ، حيث لم تقتصر رسالة المسجد منذ فجر الإسلام على أداء الصلوات فحسب ، وإنما كانت منذ عهد الرسول صلي الله عليه وسلم مدرسة للعلم ، والتعلم والتربية ، بشتى مناحيها وظل المسجد يؤدي رسالته التربوية التعليمية حتي بعد استقلال المدرسة عنه في القرن الرابع الهجري حسب رواية المقرئزي ، (4) وهنا في إفريقيا كان تأسيس المسجد يعني بدء التعريف بالإسلام والإحلام بحركة انتشاره ثم تواصلت مهمته لتثمر التمكين له دينا ودولة ، عقيدة وشريعة ، ولذلك ظل انتشار المساجد في هذا الجزء من إفريقيا أمرا يورق أعداء الإسلام على اختلاف فرقهم ، إلى يومنا هذا ، فقد جاء في مقال بعنوان (تصاعد الشمولية الإسلامية) في مجلة Afrique Nouvelle التي تمويلها الكنيسة الكاثوليكية في السنغال ، (بدأت المساجد تنشأ مثل (الشامبنيون) (فطر الأرض) وتنتشر في كل مربع وكل لوحة ، كما أن الصلوات الجماعية تؤدي باعتبارها نشاطا يوميا ، والتعليم القرآني للأطفال يساق إليه الأطفال من سن الثالثة إلى السابعة ، وذلك في محاولة منها لاستعداد السلطة على الجماعات الإسلامية بحجة علمانية الدولة (5) . انطلقت العملية التربوية في إفريقيا جنوب الصحراء من المساجد كما في غانا وبلاد التكرور التي تعد أول بلاد السودان الغربي جنوب الصحراء إسلاما ، وقد ذكر البكري إسلام أهل غانا ومساجدها الاثني عشر كأول قاعدة لانطلاق القيم الإسلامية جنوب الصحراء(6). وقد كان اهتمام الملوك والأمراء ببناء المساجد في هذا الجزء من القارة الإفريقية كبيرا فقد روى القلقشندي في صبح الأعشا اهتمام ملوك إمبراطورية مالي الإسلامية بتأسيس المساجد وخص منهم بالذكر السلطان منسي موسى (1307 -

1332)، الذي ذكر بأنه بنى مسجدا في كل مكان ادركته فيه صلاة الجمعة أثناء رحلته إلى الحج (7). وحول دور المساجد في الإسلام يقول الشيخ عبدالوهاب عزام (لا أخال التاريخ يعرف أمة في الأمم الغابرة سارت سيرة المسلمين في طلب العلم والإخلاص في تحصيله وجعله عبادة لله يتعبد بها العلماء والمتعلمون ، واتخاذ المساجد للصلاة والدروس معا ، فكما جعل الإسلام الأرض كلها للمسلمين مسجدا وظهرت جعل الأرض كلها دار تعليم وتعلم ، فالمسلم مأمور بأن ينظر في السموات والأرض وآثار الأمم وسيرها وأن يطلب العلم حيث كان ويلتقط الحكمة التي وجدها فهو يتعلم في الحضر والسفر، وكانت مساجد المسلمين دار العلم منذ أن جلس المعلم الأعظم صلى الله عليه وسلم يعط أصحابه في مسجد المدينة وإلي يومنا هذا) (8).

وفي إفريقيا جنوب الصحراء اشتهرت مساجد كثيرة بطلابها بهذا الدور التربوي التعليمي الرائد منها ، بالإضافة إلى مساجد غانا والتكرور في (فوتا) ، ومساجد تمبكت وخاصة مسجد (سنكري) في مالي ، ومساجد جني وجاو ، وظل الأمراء يوقفون الأوقاف علي هذه المساجد لتسييرها كما في تاريخ الفتاس لألفا محمود كعت (9).

2-المدارس القرآنية :

صارت المدرسة القرآنية مؤسسة مستقلة في كثير من الأحيان ، وظلت تقوم بمهامها التربوية والتعليمية بجانب المساجد تحت أسماء كثيرة منها (الدارة) في غرب إفريقيا ، و(الخلوة) في السودان الشرقي ،و(الكتاب) في الديار المصرية ، و(الدكس) في القرن الإفريقي ، وتعددت تبعا لذلك ألقاب القائمين على أمرها، فهناك المالم (المعلم) و(الألفا) (الفقيه الفاهم لدينه) و(المرابو) (المرابط) ومادبو (المؤدب) و(الفقير) و (القوني) ألخ، وهي في مجموعها ألقاب شرف تعكس المكانة الاجتماعية التي حظي بها وألئك العلماء من خلال ارتباطهم ودارتهم لهذه المدارس القرآنية وقد تطورت هذه المدارس فصارت جامعات تضيف إلى تعلم القرآن الكريم. علوما إسلامية أخرى كالعقيدة والفقه والحديث الشريف، كما كان الحال في جامعات (شنقيط) و (بر) و (قجلي) بالسنگال و(تمنبكت) بمالي وغيرها. ولفرط اهتمام المسلمين بهذه المدارس ، بني مسلمو برنو مدرسة لهم في فسطاط مصر منذ القرن السابع الهجري ،عرفت بمدرسة ابن يشيف لتدريس الفقه المالكي على وجه الخصوص .

3- الزوايا والربط والمحاضر :

ارتبطت بعض هذه المؤسسات بالطرق الصوفية التي انتظمت القارة الإفريقية ومنها القادرية، والسوسية، والتجانية، والمريدية، والشاذلية وغيرها، والزوايا جمع زاوية وهي موضع العبادة وقد عرفها بعض علماء شنقيط بأنها (مسجد بإمامه ومحضرة وبئر وحفار تصلح للآبار وراع) وطبيب (تقليدي) و(صانع) (10). أما المحضرة فجامعة شعبية بدوية متنقلة، كما يصفها الخليل النحوي، تعلم القرآن الكريم وعلومه والحديث الشريف وعلومه والعقيدة وعلم الكلام والتصوف والفقهاء والسير والتاريخ والأنساب والأخلاق، إضافة إلى اللغة والأدب والحساب والهندسة، ولشدة ارتباط هذه (الزوايا) بوجود المسلمين في هذا الجزء من إفريقيا صارت تنتسب إليها بعض المجموعات السكانية، فتكونت في موريتانيا (بلاد شنقيط) (قبائل الزوايا) مقابل (الحسانية) كمجموعات قائمة بذاتها توفرت على أعمال الدعوة والتعليم بينما اطلعت قبائل (الحسانية) بمهام العمل العسكري وإلى الجنوب من ذلك نشأت مجموعة (النوردوب) على امتداد نهر السنغال كثريحة اجتماعية يجمع بينها، على اختلاف أعراقها، حب العلم والعمل على نشره.

أما "الربط" وهي جمع "رباط" فتعد مؤسسة تربوية متقدمة من حيث الأهداف والوسائل في الأعداد والتدريب على الجهاد والقتال، وفي القرآن الكريم (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) (11)، وفي الحديث الشريف (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها) (12)، وكذلك في الصحيح (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان) (13). وعرفت سواحل بلاد المغرب في شمال إفريقيا هذه الربط التي انتشرت بها للعبادة منذ القرن الثاني الهجري (14) وكان بعضها يضم عددا من المساجد والمسكن. وقد اشتهر عدد من هذه الربط، كان من أشهرها رباط (سلا) ورباط (ماسا) و(الرباط) عاصمة المغرب الحالي، وارتبط جبل ماسا على وجه الخصوص بدعوى المهديّة.

بعض الأسس التربوية لحركات التصحيح :

1- الربط بين التربية والتعليم

معلوم أن الارتباط بين التربية والتعليم مبدأ تربوي أصيل في الإسلام، وفي القرآن الكريم (واتقوا الله ويعلمكم الله) (15)، ولهذا كانت عناية العلماء المجددين بالتربية والتعليم كبيرة ولذلك أشرفوا على إدارة مؤسساتهم التعليمية بأنفسهم في معظم الأحيان، لضمان مراقبة أدائها. وقد

أكد الحاج أحمد سيبي هذا الدور المزدوج للمدرسة القرآنية في حديثه عن مدرسة (جامل) السنغالية حيث قال : (كانت المدرسة القرآنية مهتمة منذ تأسيسها بالتربية والتعليم معا لا ترى الفرق بينهما ، ولا واحد منها يكفي عن الآخر ، ويمتاز امتزاج الماء باللبن (16) . ولاتمام الرسالة التربوية للمدرسة القرآن عكفت هذه المدارس خاصة الكبرى منها على إيواء طلابها في كثير من الأحيان ، وذلك للإشراف على سلوكهم وتقويمهم بصورة مباشرة ، ويمثل (الشيخ) قطب الرحي في هذه المؤسسة ، فالشيخ هو (صاحب المدرسة ومديرها الذي ليست له مهام أخرى خارج المدرسة ، بل يكرس حياته للمدرسة خدمة للإسلام والأمة المسلمة ، فهو المدير في المدرسة والإمام في المسجد والمرشد للتلاميذ والحارس العام لتسيير المدرسة ويلقي الدروس في انتظام) (17) . وحول دور المعلم التربوي يقول الإمام الغزالي (ومن اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما وخطرا جسيما فليحفظ أدابه ووظائفه) (18) . ولتأكيد الربط بين التربية والتعليم قال الإمام الشافعي فيما يؤثر عنه شعرا :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فارشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدي لعاصي

وقد أفرد ابن خلدون فصولا في مقدمته حول تعليم الولدان خاصة القرآن الكريم ، حيث يقول : (اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار الدين ، أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان ، وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث ، وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات ، وسبب ذلك أن التعليم في الصغر أشد رسوخا وهو أصل لما بعده) (19) .

2- التزام المنهجية الأصولية :

أدركت الحركات الإصلاحية الكبرى في إفريقيا جنوب الصحراء - موضع الدراسة - أهمية الالتزام بمنهجية مرجعية لدعواتها الإصلاحية، فأعلنت منذ البداية انطلاقها من الأصول الثابتة للدين والعقيدة على نهج " الكتاب و" السنة " ، وشكل هذا الالتزام بالنسبة لهذه الحركات غاية ووسيلة في نفس ذات الوقت ، أما الغائية فتتأني من ماهية التصحيح باعتباره عملا تعبديا في حد ذاته باعتباره مرحلة من مراحل (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ، وأما كونه وسيلة فيجاء من تبرير ما قد يصاحب التصحيح والتغيير من عوارض قد تعترض مساره فيحتاج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عندئذ إلى معالجات حاسمة قد تنتهي بإعلان " البراءة " ونقض (الولاء) بإعلان الجهاد ، وفي مراسلات الفوديين والشيخ محمد الأمين الكانمي ما يؤيد هذا ،

حيث برّر الفوديون قتالهم لسلطان (برنو) بحجج وأدلة شرعية كثيرة ، ومن ذلك ما جاء في إحدى هذه الرسائل (أما سبب القتال الذي وقع بيننا وبين سلطان (برنو) وأهله ، فاعلم أنا ما قتلناهم لكفرهم بالأصالة ، وإن كان يؤثر عنهم تواتراً ما يوجب الحكم بالتكفير ، مثل ما يفعلونه في مكان يسمى (بيكو) لعدم علمنا بذلك حقيقة ، وإنما قاتلناهم لابتدائهم لنا بالقتال واعتدائهم علينا موالاته للكفار وتعصبا لهم ونصرة لهم ، ولا جرم أن ذلك يوجب الحكم بارتدادهم ، إن كان سبق لهم الإسلام الصحيح ، قال المغيلي في " مصباح الأرواح في أصول الفلاح " مما يدل على عدم الإيمان بنص القرآن موالاته للكافرين لقوله تعالى (تري كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون) . وقد كتب الفوديون خاصة الشيخ عثمان كتباً عدة في مجال الولاء والبراء وقضايا التأصيل القائم على الكتاب والسنة وضرورة مجانية البدع والتخليط ومنها كتاب (إحياء السنة لمائة البدعة) و (بيان البدع الشيطانية التي أحدثها الناس في أبواب الملة المحمدية) وغير ذلك ، وقد انتهجت الثورة المهديّة نهجاً مرجعياً مماثلاً تتضح معالمه في بعض رسائل الإمام المهدي، ومن تلك رسالته للاستناد الشيخ محمد الأمين يشترط فيها عليه عدم التعلق بالأئمة والاكتفاء بالاعتماد على الكتاب والسنة ، وهذا هو الذي دعاه إلى إلغاء المذاهب والطرق (20) . وقد سبقه في هذا الشيخ عثمان دان فوديو حيث تعرض الشيخ لمسألة المذاهب بصراحة واضحة في مؤلفه (هداية الطلاب) (وانتهى إلى عدم ضرورة الالتزام بمذهب فقهي واحد في جميع الأحوال والظروف) (21).

ظل مبدأ النظر الشمولي لمطلوبات الدين باعتبار الإسلام ديناً ودولة ، وعقيدة وشريعة ، أمراً ملازماً لمعظم هذه الحركات التصحيحية ولذلك تحولت دعوة الشيخ عبدالله بن ياسين الإرشادية إلى دولة امتدت من الصحراء الكبرى مكان انبثاقها جنوباً إلى أوروبا (الأندلس) شمالاً ، بقيادة أمراء مجاهدين من أمثال يوسف بن تاشفين ، كما أثمرت جهود (التوردوب) الفوتوايين في بناء دولة إسلامية في القرن الثامن عشر الميلادي وهي " المامية " فوتا السنغالية (أو إمامية فوتا) التي وضع لبناتها الأولى جرنو سليمان باه وأحدثت انقلاباً في نمط الحياة السياسية والثقافية الذي ساد إبان سيطرة السلطة الديننيانكية ، من جانب آخر تمخضت مناهج الفودييين التربوية عن خلافة إسلامية امتدت نحو قرن من الزمان ، كما نجح علماء (ماسينا) الفلانيين ، من إرساء قواعد إمارة إسلامية رائدة . وعلى هذا النسق سارت الدولة المهديّة في السودان ، وصفوة القول لقيادة هذه الحركة جميعاً حاولوا التزام مرجعية أصولية شرعية واحدة ، انتهت

بنجاحهم في استكمال سلطانهم السياسي وفق متطلبات الشرع، وقد اجتهدوا في أن تكون مؤسسات إماراتهم على نهج النظم السلطانية في حضارة الإسلام، والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة معلومة .

3- الإعداد والتنشئة :

شملت فلسفة الإعداد في مناهج الإصلاحيين التربوية تصوراً يجمع بين (الكم) و (الكيف) وذلك من خلال الإعداد الأفقي الذي يعني بشرائح اجتماعية عريضة توفر السند الكمي لحركة التصحيح في مراحلها المستقبلية بجانب الإعداد الرأسي والذي يرمي لإعداد (كواد) قيادية توكل إليها مهام التنفيذ والقيادة على مختلف المستويات ، وقد ظلت مؤسسات التعليم الإسلامي وخاصة المدارس القرآنية تقوم بمهمة الإعداد الجماعي لشرائح المجتمع المختلفة تدعمها في ذلك المؤسسات الأخرى وعلى رأسها المساجد والمحاضر أما مهام الإعداد (الكيفي) فقد كانت تقع تحت إشراف المصلح المباشر أو من ينوب عنه حيث يتم أعداد من تتوفر فيهم بعض متطلبات القيادة والاستعداد لتنفيذ المهام الصعبة التي تتطلب التضحية والإقدام . وفي بعض الزوايا والربط التي أنشأها المرابطون في الصحراء كان هالك يتم التدريب على استعمال السلاح وتنمية للمهارات القتالية الأخرى، كركوب الخيل والرياضة، ولما كانت هذه المرابط كثيراً ما تكون بعيدة عن المدن ، بأن تكون على السواحل أو في الأطراف البعيدة والصحراء، فقد ساعد هذا البعد المكاني في إحكام وضبط تنفيذ برامج التنشئة المختلفة ، على سبيل وضع المثال المرابطون للقبول في "الرباط" متطلبات خاصة وشروطاً معينة منها ضرورة امتحان من يريد الانضمام إلى "الرباط" ، ثم إخضاعه بعد ذلك لفترة مراقبة دقيقة للتأكد من مدى استعداده للجهاد والمصابرة بعد أن يجدد إسلامه ، ثم يعقد له محاكمة خاصة لما قد يكون قد ارتكبه من ذنوب قبل التحاقه بالرباط فيضرب تبعاً لذلك مائة سوط إن كان قد ارتكب جريمة زنى ، وثمانين سوطاً إن شرب خمراً ، وربما زيد على ذلك (22) ، وإلتام تطهير (الجماعة) وتركيتها في ذلك كان التوجيه بالاعتماد في مطعمها ومأكلها على الصيد في البر والبحر في الطعام مع الاعتماد على أنفسهم في إعداده مع التدريب على الاكتفاء بالقليل والخشن منه .

2- القدوة وحسن القيادة :

من أهم الأسس التربوية للحركات الجهادية والتي ساعدت في إنجاح مساعيها في التصحيح ولإعادة بناء المجتمعات الإسلامية في إفريقيا، نجاح قاده الإصلاح في الظهور بمظهر " القدوة

الحسنة " التي تدفع الأتباع والمريدين إلى التثبيت من مصداقية الأهداف التي تسعى الحركات لتحقيقها وجدية البواعث المحركة لها ممثلة في شخوص قياداتها العليا ، وبتصويب النظر في سلوك هؤلاء القادة والزعماء يتضح مدى نجاح هؤلاء القادة في أن يكونوا عند حسن ظن أتباعهم وقواعدهم التحتية من الطلاب والأتباع ، فالشيخ عبدالله بن ياسين عرف في أوساط محبيه بالأدب والتواضع الجم فقد كان شديد الورع ، كثير التأمل دائم التحري للحلال في طعامه وشرابه وجاء في " الاستقصاء " أنه لم يكن يأكل شيئاً من لحوم صنهاجة ولا من ألبانها مدة إقامته بها (23) ، بجانب ذلك كان مشاركاً بنفسه في الأعمال الجهادية حيث استشهد وهو يقاتل البرغواطين ، أما في جانب القيادة فقد توفرت في الشيخ ملكات قيادية جعلت منه شيخاً مهاباً مسموع الكلمة وفي هذا يقول المؤرخ الإسلامي الدكتور حسن محمود " لقد تمكن ابن ياسين من قلوب معاصريه بفضل الصفات الشخصية الممتازة التي توفرت له وبفضل السيرة الطيبة واصطناع النقشف وذلّال النفس بكثرة الصيام ، إلى جانب قوة الحجة والقدرة الفائقة على التأثير في سامعيه وخب لهم بحديثه).

من جانبه كان الشيخ عثمان دان فوديو قدوة حسنة لطلابه ومريديه المجاهدين، فقد كان بدوره ورطاً متواضعاً على سعة علمه وعلو مكانته، وقد ذكر ابنه صاحب (انفاق الميسور) طرفاً من سيرة أبيه وسلوكه حيث يقول : (ثم اعلم أنني رأيتُه إذا أراد الخروج إلى الناس يقف في زاوية الدار هنية ويتكلم بكلام ثم ينصرف إلى الناس، فسألته عن ذلك فقال أجدد النية وأعاهد الله على الإخلاص فيما أخرج إليه ، وأسأله أن يفهم الحاضرين ما أحدث به .. وكان إذا وصل إلى المجلس سلم بسلام عام يسمعه جميع الحاضرين وإذا صعد على الكرسي حياهم بتحية عامة ثلاث مرات ببشاشة وطلاقة وجه وحسن خلق ، ثم ينصت الناس ، فلا يضجر ولا يحقد ولا يسأم مع كونه مبتلى بجماعة من العوام ذوي سوء أدب، إذا استتصتهم لايسكتون وإذا منعهم من السؤال لا ينتهون ، ثم يحدثهم بصوت عال لا يواجه بخطابه أحداً دون آخر وكان صلباً في الدين لاتأخذه في الله لومة لائمة ، يحكم بالقسط والعدل ولو في القربى ، لا تأخذه حمية الجاهلية بل لا يزيغ عن الحق) (24). وقد استوقفت هذه الصفات المتشرق " هسكت " فأشاد بها في كتابه عن جهاد الفوديين (25) (*). أما الإمام محمد أحمد المهدي في السودان الشرقي فقد كان بدوره قدوة لفت بورعه أنظار انصاره وقد عرف بين أقرانه منذ سنوات الطلب الأولى بالورع والزهد والتقى وقد نأى بنفسه عن قبول جرايات الحكومة التي كانت تتفقها على بعض الخلاوي والعلماء (26).

بجانب هذه الصفات السلوكية الرفيعة المنبثقة عن قيم الدين الأخلاقية وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم ، توفرت في معظم هؤلاء المصلحين بعض صفات القيادة الكارزمية ، فالشيخ عبدالله بن ياسين كان قد عرف بالحزم والقوة في اتخاذ القرار على الرغم من بساطته وتواضعه ، فقد كان مسموع الكلمة مهاب الجانب ، ويظهر هذا في كثير من توجيهاته وخطبه الجهادية وفي استجابة المرابطين لهذه التوجيهات ومن ذلك قولهم له ذات مرة (أيها الشيخ المبارك مرنا مما شئت تجدنا سامعين مطيعين ولو أمرتنا بقتل أبائنا لفعلنا) (27). ويقول الدكتور حسن محمود في هذه القيادة (فليس بغريب أن نرى المرابطين لا ينظرون إليه نظرتهم إلى فقيه مصلح أو زعيم ، بل نظروا إليه نظرتهم إلى ولي من أولياء الله وبدأوا ينسبون إليه الكرامات وكانت تحفظ فتاويه وأجوبته فلا يعدل عنها ، بل ظلوا بعد وفاته لا يقدمون أحدا للصلاة بهم إلا إذا كان ممن صلى خلفه ونعم بصحبته). من جانب آخر توفرت بعض هذه الصفات الكارزمية في شخصية الشيخ عثمان دان فوديو القيادية ، فكان بدوره مهابا لسعة علمه ونشأته في بيت علم ودين وصلاح ، وفي " إفاق الميسور " " اعلم أن هذا الشيخ نشأ من صغره في الدعوة إلى الله وقد أمده الله تعالى بأنوار الفيض وجذبه إلى حضرته وكشف له عن حضرة الأفعال والأسماء والصفات و أشهده غرائب الذات فصار بحمد الله من أولياء الله). وقد أفاد الشيخ عثمان من نفوذه الروحي وقيادته الكارزمية في حسم كثير من الصراعات التي نشبت بين القادة وعمل على عدم تفاقمها (28) . أما الإمام محمد أحمد المهدي في السودان فقد تمتع بقدر من هذه الكارزمية وفي ذلك يقول الدكتور أبو سليم (كان المهدي في نظر أتباعه رجلا مقدسا ، وبالتالي أضفيت روح القداسة على آثاره المكتوبة وكل ما هو منسوب إليه ، وقد عد حمل محرراته نوعا من التبرك ولهذا نجد مصنفات صغيرة يمكن حملها في (الجيب) ولما مات توفي الإمام المهدي ازدادت قدسيته وصار أتباعه يسعون لما كتبه وما خلفه من آثار ، وهذه عادة في طبيعة البشر) ، وهي بالطبع عادة تستوجب التقويم والتصحيح بمقتضى النظر الشرعي لما تنتهي إليه دوما في غلو تعلق بالأشخاص فهي عنه المصلحون أنفسهم .

3- التخطيط :

معلوم أن العمل وفق خطة مرسومة لبلوغ الأهداف يعد وسيلة مهمة في بلوغ الأهداف المرجوة فغياب التخطيط لأية مهمة يوقع في التخبط والاضطراب وقديما نعى العلامة عبدالرحمن بن خلدون على بعض العلماء والدعاة والمرشدين افتقارهم إلى التخطيط وعدم البحث عن أسباب

المنعة والتمكين فقال في مقدمته (وفي هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء فإن كثيرًا من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه والأمر بالمعروف رجاء في الثواب عليه من الله ، فيكثر أتباعهم والمثلثون بهم من الغوغاء والدهماويعرّضون أنفسهم في ذلك للمهالك وأكثرهم يهلكون في هذا السبيل مأزورين غير مأجورين، لأن الإله سبحانه وتعالى لم يكتب ذلك عليهم وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه ، قال صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه قال فإن لم يستطع فبقلمه ، وأحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يزخر منها فيها ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر ..) (29)

سار معظم قادة الإصلاح في هذا الجزء من إفريقيا وفق تخطيط مدروس أعانهم فيه الله سبحانه وتعالى ، فقد تحاشى معظمهم الدخول في صراع مكشوف مع الدولة الحاكمة منذ الوهلة الأولى بل أرجأوا ذلك إلى حين الفراغ من تهيئة الأوضاع بإكمال الإعداد والعتاد، فقد امتنع الشيخ بن ياسين عن إعلان الجهاد حتى اكتمل عدد أتباعه ألف رجل، فإذن لهم عندئذ بالتحرك وبدء الهجوم، ثم اعقب ذلك نقل الرباط وفق أولويات خاصة وبدأ في نشره حول المواقع المستهدفة وفق سياسة دفاعية وهجومية فعّالة ، والفوديون من جانبهم وضعوا لأنفسهم خطة محكمة لبلوغ أهدافهم قوامها استعمال الحكمة وتجنب المسارعة في مواجهة السلطة وعند تأزم الظروف اكتفى الشيخ عثمان بالهجرة إلى (غدو) تاسيا بهجرة الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وعلى ذات النهج كانت هجرة المهدي الأولى إلى قدير .

لقد انطلق القادة المصلحون في التخطيط لتنفيذ برامجهم الدعوية للوصول بها إلى غاياتها من فهمهم الدقيق لنفسيات مجتمعاتهم ووقوفهم على حقيقة الأوضاع الاجتماعية والسياسية السائدة في زمانهم ومعرفة هذه الأوضاع تعد مسألة ضرورية في التخطيط سواء في مجال التربية والتعليم كما يرى سادلر وغيره ، أو في مجال الإعداد للتغيير والتحول الاجتماعي ، ذلك أن الوقوف على طبيعة العوامل الاجتماعية وطبيعة المجتمعات المستهدفة تعدّ مراً مساعداً في إنجاح التخطيط التربوي والتكويني للأفراد والجماعات ، ولذلك كان الشيخ ابن ياسين على معرفة تامة بأوضاع مجموعات الطوارق الملتئمين وغيرهم في الصحراء من حيث كونهم رعاة في مجتمع رعوي كثير التنازع صعب الانقياد ، كما كان مدركاً في ذات الوقت لخصوصية العلاقة التي ظلت تربط قبائل الشمال الرعوية بقبائل الجنوب الزراعية المستقرة والتي أنشأ رباطه الأول

بين ظهرانيمهم ، فعول على المصاهرة في الربط بين المجموعتين وقديماً كانت المصاهرة عاملاً من عوامل انتشار الإسلام في إفريقيا ، وربما كان إكثار الشيخ ابن ياسين من الزواج فيما ذكر عنه أمراً يدور في هذا المفهوم . أما الشيخ عثمان فقد كان على معرفة كبيرة بمجتمعات الهوسا ولأهم الاجتماعية ، وقد ظل يخاطب كل جماعة من مستمعيه بلسانهم ، فجانب العربية التي كان يستعملها في دروسه للطلاب المداومين في سلك الدراسة ، كان يلقي مواظمه للعومة تارة بالهوسوية وتارة بالفلانوية وخرى بلغة الطوارق ، كذلك أدرك الشيخ عثمان دور المرأة في النهوض للمجتمع فوجه اهتمامه بتعليمها وإشراكها في برامج التربية وله في ذلك كتابات يحث فيها على ذلك مثل رسالته (تنبيه الأخوان علي جواز اتخاذ المجلس لأجل تعليم النسوان على فروض الأعيان من دين الله تعالى الرحمن).

من جانبه كان الإمام محمد أحمد المهدي ملماً بأحوال عصره وإمكانات أعدائه فخطط لبلوغ مراميه بتدرج وحكمه، كما كان عارفاً بنفسيات أنصاره ملماً بأنساب الكثيرين منهم خيراً بالبيئة التي يقاوم فيها .

هكذا انطلقت معظم الحركات التصحيحية في إفريقيا جنوب الصحراء من أسس تربية إسلامية استمدت أصولها من الكتاب والسنة وولت وفق تخطيط وألويات خاصة في ظل ظروف اجتماعية وسياسية بعينها وذلك من خلال مؤسسات تعليمية تربية توفرت على بث قيم الدين ولإعداد المعنيين بقيادة وتنفيذ برامج التصحيح والتجديد في هذا الجزء من القارة الإفريقية السمراء .

المصادر والمراجع :

- 1) القرآن الكريم - من الآية 110 سورة آل عمران
- 2) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - ص 69 ، دار الفكر بيروت 1398 هـ - 1978م
- 3) Trimingham , A history of Islam in West Africa , London 1970
- 4) آمال حمزة المزروعى - النظرية التربوية الإسلامية ، ص 125 ، جدة ، 1402هـ - 1982م
- 5) Etudes Islamiques K Rev. la montee , de l'entegration Musulman , P. 5 Dakar , (5 Ramadan 1404 h, Mai 1984.
- 6) البكري ، أبو عبدالله البكري ، المسالك والممالك ، Bull. d'I . F.A .N, tom xxx, Dakar , Jan . 1968 .
- 7) القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي ، صبح الأعشا ، ج 5 ص 297 القاهرة 1383هـ - 1963م
- 8) مجلة التربية ، العدد 197 ، ص 145 - يونيو 1991م
- 9) كعت ، القاضي ألفا محمود كعت ، تاريخ الفتاش ، ص 106 ، طبعة باريس 1981م .
- 10) النحوي ، الخليل النحوي ، بلاد شنقيط المنازة والرباط ، ص 34 ، تونس 1987م
- 11) من الآية 6 - سورة الأنفال .
- 12) الإمام محي الدين النووي ، رياض الصالحين ، ص 522 .
- 13) صحيح مسلم ، باب فضل الرباط في سبيل الله عزّ وجلّ ، ص 1520 .
- 14) د. أحمد العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 291 - القاهرة .
- 15) من الآية 282 - سورة البقرة .
- 16) الحاج أحمد سيدي ، مدرسة جامل للقرآن الكريم ، بحث في ملتقى تعليم القرآن الكريم بالسنغال ، المعهد الإسلامي ، داكار ، 1978 م
- 17) مهدي ساتي ، مؤسسات التعليم الإسلامي والعربي في السنغال ، إصدار رقم 7 - المركز الإسلامي الإفريقي في الخرطوم 1990 م (تقرير عن مدرسة كوكي الإسلامية) ملاحق البحث .
- 18) الغزالي ، الإمام أبو حامد ، إحياء علوم الدين ، ج 1 ، ص 55 ، بيروت .
- 19) ابن خلدون ، عبدالرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، ص 537 - 538 بيروت .
- 20) د. محمد إبراهيم أبو سليم ، الحركة الفكرية في المهديّة ، ص 44 ، الخرطوم 1970م .
- 21) د. أحمد محمد كاني ، الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا ، ص 99 ، القاهرة 1407 هـ - 1987م
- 22) د. عصمت دندش ، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ، ص 73 ، بيروت 1408هـ - 1988م
- 23) إبراهيم محمد حسن الجمل ، الإمام عبدالله بن يسن ، ص 149 ، الدمام .
- 24) محمد بلو ، السلطان محمد بلوين الشيخ عثمان ، انفاق الميسور في تاريخ التكرور ، ص 67 - القاهرة 1383 هـ - 1964 م .
- 25) M.Hiskett , The Sword of the Truth P. 57 , London , 1973

- * انظر كذلك ورقة د. بابكر قديماري وورقة د. أحمد عمر عبيدالله ، حول المنهج التربوي في دعوة الشيخ عثمان دان فوديو ، ندوة جامعة إفريقيا العالمية للاحتفاء بالشيخ المجاهد ، عثمان دان فوديو ، الخرطوم 1996م.
- (26) د. محمد إبراهيم أبوسليم ، مرجع سابق .
- (27) د. عصمت دندش ، مرجع سابق ، ص 75 م
- (28) د. السر العراقي ، نظام الحكم في الخلافة الصكتية ، ص 15 ، الخرطوم 1983م
- (29) ابن خلدون ، المقدمة ، مرجع سابق .